كُتب في جيب القارئ المغربي

كتاب الجيب دينامو صناعة الكتاب يبحث عن وفاء القراء

النشر صناعة كبيرة وعريقة لها تقاليدها كما لها طرقها التي تتجدد وتتغير تغير السوق ومتطلباتها. ومع التغير الكبير الذي طال الحياة البشرية وجعلها أكثر سرعة ظهرت كتب من نوع آخر هي كتب الجيب. كتب يمكن حملها في جيوب المعاطف وقراءتها في أي وقت كان، في الميترو أو في محطة أو أي مكان يجد فيه القارئ نفسه دقائق يقضيها مع كتاب خفيف وصغير الحجم يتنقل معه حيث كان. لكن هذه الكتب على أهميتها البالغة، ظلت قليلة الانتشار عربيا رغم النجاح الكبير الذي حققته مع مشاريع نشر هنا وهناك في الوطن العربي.

حسن الوزاني
كاتب مغربي

في الوقت الذي أطلقت فيه دار النشر الفرنسية جول تايلانديي سلسلة "كتاب الجيب" الخاصة بالأعمال الروائية سنة 1905، كانت آلات الطباعة الحجرية العتيقة بمدينتي فاس ومكناس المغربيتين ما زالت مستمرة في إعادة طبع فتاوى وحواشي الفقهاء، التي يُحرم الكثير منها كل شيء بما فيه الطباعة. وكان على المغرب انتظار قرن من الزمن ليرى ظهور سلسلته الاحترافية الأولى الخاصة بكتاب الجيب التي أطلقتها دار الفنك بمدينة الدار البيضاء بعد تجارب أخرى أقل احترافية.

وإذا كانت المقارنة بين تجربتين متباينتين تبدو قاسية فإنها لا تنفي من جهة أهمية إصدارات المطابع الحجرية المغربية على مستوى فتح أفق آخر للتداول والتواصل بين المؤلفين والقراء، غير أنها تعكس، من جهة أخرى، جدة تقاليد النشر الحديثة بالمغرب وبالعالم العربي وإن اختلفت مستوياتها حسب البلدان.

مسارات البداية

في سنة 1996 وبعد فترة قصيرة إثر تقاعده من إدارة إذاعة طنجة، اختار الصحافي المغربي خالد مشبال دخول تجربة مغايرة لن تكون سوى سلسلته الشهيرة المعروفة باسم "سلسلة شراع".

وكانت فكرة المشروع تهدف إلى إيصال الكتاب المغربي إلى أكبر عدد من القراء عبر الاقتراب من قدراتهم الشرائية وأيضا الاقتراب من أحد جوانب انتظاراتهم. ولتحقيق ذلك، تم من جهة تحديد سقف ثمن النسخة في الدولار الواحد، عبر الرفع من حجم السحب، وتم الحرص من جهة ثانية على تحقيق توزيع كبير يضمن الخروج بالكتاب من مكتبات البيع الكبرى وعدم التركيز على مكتبات المدن الرئيسية. وهو ما سيجعل من اليسير أن يجد القارئ نسخته وهو يتمشى على الرصيف ! وبذلك، عرف الإصدارُ الأول نجاحا كبيرا، اعتبارا لمحدودية الثمن، ولكن أيضا لأن الكتاب الصادر، وهو "حوار التواصل"، كان يحمل توقيع الباحث المغربي المهدي المنجرة، الذي يعتبر من أكثر الكتاب شعبية بالمغرب.

واستطاعت "سلسلة شراع" أن تضمن لنفسها سحبا منتظما يتجاوز العشرة آلاف نسخة من كل عنوان، مع إمكانية إعادة الطبع أكثر من مرة، كما حدث بالنسبة إلى كتاب المهدي المنجرة السابق.

> كتب الجيب تشكل الطريق الأفضل إلى تحقيق دمقرطة المعرفة، ومن جهة أخرى، إلى مهنية دور النشر

واخترقت السلسلة بذلك سقف معدل السحب بالمغرب، الذي ما زال لا يتجاوز إلى حد الآن الألفي نسخة. كما استطاعت السلسلة أن تحقق انتظاما في الصدور، لتنتقل بعد ذلك من الظهور على رأس كل شهر إلى الصدور مرتين في الشهر. بينما جاوز عدد نسخ السلسلة، خلال ثلاث سنوات فقط، المليون نسخة. وامتدادا للنجاح الذي استطاعت تحقيقه "سلسلة شراع"، اختار خالد مشبال توسيعَ مجال مشروعه الخاص بكتب الجيب، حيث أطلق سلسلتين أخريين. ويتعلق الأمر بسلسلة إبداعات شراع، وبموسوعة شراع الشهرية.

تجارب أخرى

فتح النجاح الذي حققته "سلسلة شراع" شهية مثقفين مغاربة آخرين لدخول التجربة. وهكذا عرفت نهاية تسعينات القرن الماضي ظهور سلسلتين أخريين. الأولى تحمل اسم "المعرفة للجميع"، الصادرة ضمن منشورات رمسيس بالرباط. وقد تميزت السلسلة بتنوعها مع تركيز خاص على مجال التربية والطفل.

أما السلسلة الثانية فهي سلسلة "كتاب الجيب" الصادرة ضمن منشورات الزمن. وبالإضافة إلى التجربتين السابقتين، اختارت مجلة "وجهة نظر" إطلاق سلسلة منشورات تندرج في إطار أعمال الجيب. وتتميز السلسلة، التي تحمل اسم "دفاتر وجهة نظر" بتخصصها العام في إطار الفكر السياسي.

وبخلاف أغلب السلسلات التي ظهرت بالمغرب والتي يجمعها طابعها الاحترافي المحدود، لم تراهن دار الفنك، التي دخلت تجربة نشر كتاب الجيب منذ العشرية الأولى من القرن العشرين، على الإصدار الشهري، الذي يمكن أن يثقل سوق القراءة. وحرصت في مقابل ذلك على إعادة نشر كتب مشهورة كلما توفرت شروط ذلك؛ حيث أعادت إصدار، على سبيل المثال، رواية "الخبز الحافي" الشهيرة لمحمد شكري.

وبقدر ما فتح صدور السلسلات الجديدة هامشا مفترضا لتعزيز مجال النشر بالمغرب حمل ذلك بذور نهاية بعضها. حيث أصبح يتحتم على السلسلات الجديدة تقاسم نفس عدد القراء. يضاف إلى ذلك التشابه المطلق الذي ظل يجمع بعضها، سواء من حيث الشكل أو الحجم أو الثمن أو طبيعة المواضيع أو العناوين، في غياب البحث الذكي عن هامش للاختلاف بينها.

والنتيجة أن أغلب السلسلات قد أفَلت، مخلفة وراءها حكاية تجربة منيرة ومختلفة على مستوى النشر بالمغرب. وهي التجربة التي قد تضاهي ما يصدر ببقية الدول العربية، بالرغم من اختلاق السياقات وبالرغم من السبق التاريخي الذي حققته دولتان كلبنان ومصر على مستوى استعمال الطباعة وإطلاق دور نشر .

وفاء القارئ

بعيدا عن السياق العربي، يبدو أن كتاب الجيب ما زال يشكل دينامو صناعة الكتاب. وهو ما يفسر حدة التنافسية، على سبيل المثال، بين دور النشر الفرنسية الكبرى التي تتقاسم جزءا هاما من أسواق النشر الفرنكوفونية.

وهي تتجلى بشكل أساس في دار إديتيس، وفلاماريون، وغاليمار، وسلسلتها الشهيرة فوليو، التي ما زال كتاب "الغريب" لألبير كامو يتربع على عرش مبيعاتها بما يناهز السبعة ملايين نسخة، بالإضافة إلى دار هاشيت، التي جاوز مجموع سحبها على مستوى سلسلة كتاب الجيب المليار نسخة. وبذلك تظل صناعة كتاب الجيب على رأس المؤشرات الاقتصادية لقطاع النشر ببلد كفرنسا، إذ يشغل الثلث في المئة، سواء على مستوى عدد الإصدارات أو السحب أو المبيعات أو أرقام المعاملات. أما وصفة هذا النجاح، الذي يطبع التجربة الفرنسية وغيرها من التجارب الغربية، فتعود من جهة إلى طبيعة هذا النوع من الكتب الذي يشكل الطريق الأفضل إلى دمقرطة المعرفة، ومن جهة أخرى إلى مهنية دور النشر، التي تجعل من كتاب الجيب مجالا للإبداع المستمر على مستوى المضامين بحثا عن وفاء القارئ. وهو على الأقل ما تؤكده تجربة السلسلة الشهيرة "ما ذا أعرف؟"، التي كانت قد أطلقتها المنشورات الجامعية الفرنسية في زحمة الحرب العالمية الثانية لتعرف نجاحا مستمرا إلى حد اليوم، بإصداراتها المترجمة إلى ما يناهز الأربعين لغة، وبوسائطها المتعددة، سواء الورقية منها أو الإلكترونية أو السمعية.

كتب من سلسلة شراع

قراءة في دفتر قديم

حميد سعيد
كاتب عراقي

تواصلت علاقتي بالقراءة طويلاً، ولا أبالغ حين أقول كان هذا التواصل على امتداد العمر كله.

قضيت أوقاتاً طويلة في المدن التي أقمت فيها، في مكتباتها العامة، وأفدت من مكتبات معارفي وأصدقائي الخاصة، وأنشأت مكتبات خاصة بي، كانت الأولى في بيت والدي بمدينة الحلة، ظلت فيه حتى نكبة الاحتلال في سنة 2003 ومن ثم لا أدري إلى أي مآل قد انتهت، كما أنشأت مكتبات، مهمة أو متواضعة، حيث أقمت طويلاً.

وصارت لي علاقات بأصحاب المكتبات وباعة الكتب في جميع المدن التي أقمت فيها أو ترددت عليها، ترقى في كثير من الأحيان إلى حالة صداقة متميزة، بل أن بعض الكتبيين تواصلت صداقتي معهم وامتدت إلى أبنائهم، ومثل هذه العلاقات أقمتها مع بعض الكتب التي أكاد أعرف تاريخها، بل سيرتها الذاتية، متى اقتنيتها ومن أي مدينة ومن أي مكتبة فيها، ومتى قرأتها وماذا أفدت منها ومتى عدت إليها ولمن أعرتها، فإذا فقدتها أصابني الغم على فقدانها، وقد أتحدث عنها، كما أتحدث عن صديق عزيز، ولي مع بعضها ما يمكن أن أحسبه مفاجأة.

منذ أيام، أهداني صديقي الكاتب الفلسطيني سليم النجار، كتيبا صغيرا، على هيئة دفتر قديم، وقال لي: هذا كتاب يقرأ، وهو بعنوان "دفتري.. نصوص من العام 1954 – 1955" لسعد حجازي، وحين بدأت بتقليبه، وجدته دفترا مدرسيا قديما، مكتوبا بخط "الرقعة" الجميل ويضم ما يمكن أن نعده مقالات كتبها طالب نبيه في السادسة عشرة من العمر في درس "الإنشاء"، كان قد وجد رعاية من مدرس اللغة العربية، فتميز في ما كتب، سواء في ما تناول من قضايا وموضوعات، أم في ما طرح من أفكار واقترح من معالجات، أم في قدراته اللغوية التي تبدو في معظم ما كتب، أكبر بكثير من عمر فتى في مرحلة الدراسة الثانوية، وحين انتهيت من قراءة دفتر ذلك الفتى، وجدتني معه في ما قال في المقدمة، حيث "التطلع إلى العلم وضرورة نبذ الجهل والتخلف والعصبية، كان هاجس ذلك الفتى كأداة أساسية وربما وحيدة، لخلاص الفرد والأمة معًا".

إن ذلك الفتى صار شيخا في الثمانين، وهو من مواليد مدينة إربد في الأردن، في مطلع العام 1938، وكان قد نال شهادة البكالوريوس في الطب عام 1962 من جامعة أنقرة التركية، وشهادة الماجستير من جامعة ميتشغان في الولايات المتحدة الأميركية في العام 1965، وشهادة الدكتوراه من جامعة لندن في العام 1976، وهو عضو في العديد من الهيئات والمنظمات والاتحادات والنقابات والزمالات الدولية والعربية والأردنية، وحصل على العديد من الجوائز والأوسمة وشهادات التكريم، وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه لطلبة الطب.

لقد تولى العديد من المواقع العلمية والأكاديمية، منها رئاسة جامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية ورئاسة الجمعية الملكية في الأردن وعضوية المركز الوطني لحقوق الإنسان في الأردن، أما الآن فهو أستاذ شرف في كلية الطب بجامعة العلوم والتكنولوجيا الأردنية، وله دراسات وبحوث باللغتين العربية والإنكليزية، ويقول في مقدمة "دفتري": لم أطلع على دفتري هذا أحدًا، الآن وقد اقتحمت الثمانين من العمر، أطلعت صديقا عزيزا عليه، فكان رده، ينبغي نشر هذا الدفتر ونصوصه كما هي، كشهادة لجيل ما قبل الشباب، حين كانت الأمة تركض بكل أوزار هزيمتها، نحو خلاصها في زمن صح فيه منها العزم والدهر أبى، وها أنذا أستجيب لنصيحة ذلك الصديق".

ولكي يكتمل الحديث عن الدفتر القديم وتكتمل قراءته، ينبغي أن نتوقف عند مدرس اللغة العربية –واصف الصليبي– الذي كان له الدور الأساس في ما كتب الشاب المتميز، وفي إنضاج قدراته، وسأعتمد ما كتبه عنه زياد أبوغنيمة:

واصف عبدالرحمن داود الصليبي من مواليد مدينة نابلس الفلسطينية في العام 1905 وقد تخرج من دار العلوم في القاهرة في العام 1932 وحين أنهى دراسته الجامعية، عاد إلى نابلس، وعمل في وظائف إدارية وكان من نشطاء الجناح الشبابي في الحركة الوطنية الفلسطينية، فلاحقته سلطات الاحتلال البريطاني وسجن لمدة سنة واحدة، ثم اعتقل مرة أخرى في سنة 1939 وأمضى في المعتقل أربعة عشر شهرا، بعدها انتقل إلى مدينة إربد وعمل مدرسا في مدرسة إربد الثانوية ثم أصبح مديرا لها، وأقام في مدينة إربد حتى توفاه الله عن ثمانين عاما في العام 1985، ويعد واصف الصليبي من رواد الصحافة المدرسية وقد كتب الشعر وله قصائد معروفة.

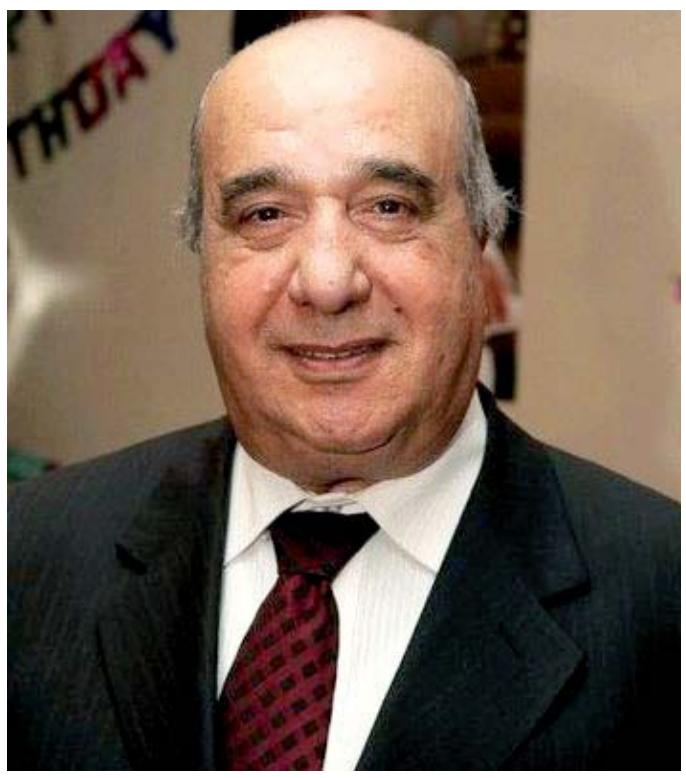

سعد حجازي من تلميذ موهوب إلى دكتور فاعل

> دفتر مدرسي قديم مكتوب بخط «الرقعة» يضم مقالات مميزة كتبها طالب نبيه في السادسة عشرة من العمر

لقد اختصر الدكتور سعد حجازي ما هدف إليه من نشر دفتره المدرسي القديم في الإهداء الذي افتتح به صفحاته، بقوله: إلى الناشئة العربية والأردنية.. كشاهد على وعي وثقافة جيلنا، جيل الخمسينات من القرن العشرين، وكما بدأنا هنا في زمن الهزيمة العربية الكارثية المدوية. هكذا بدأنا.. وهكذا يقول دفتري.

غير أنني رأيت في صفحات الدفتر القديم، ما يستدعي التأمل والوقوف طويلاً، عند الكثير مما جاء فيه من أفكار وممارسات، بل وتجارب، عملية وفكرية، تشكل درسا جديرا بأن نتعلم منه، حيث الآمال العريضة التي كاد بعضنا ينساها وينصرف بعيدا عنها.